المحاضرة الرابعة عشرة

أثر السرد العربي في الآداب الغربية (2)

"ينتهي كل أدب إلى الضيق بذات نفسه

إذا لم تأت إليه نفائس الآداب الأخرى"

جوته

أولا. مسالك التواصل بين الأدب العربي والآداب الغربية:

إن ثمة جملة من المسالك أسهمت في تقوية صلات التواصل والتأثر والتأثير بين الأدب العربي والآداب الغربية، نجمل هذه المسالك في هذه النقاط حتى تتضح للطالب ويدرك أثرها.

1- المسلك الديني: تمكّن المسلمون في القرن الأول للهجرة من فتح إسبانيا واستمر تواجد المسلمين فيها ثمانية قرون كاملة، فطغت اللّغة العربية على اللّغة اللاتينية في إسبانيا، ودخل عدد كبير من المسيحيين إلى الإسلام، فازداد الإقبال على الثقافة العربية الإسلامية.

كما كان التواصل سببا في دخول مجموعة كبيرة من الألفاظ العربية إلى اللّغة الإسبانية، ووصل الأمر إلى الشعر، فيذكر الباحثون أن "شعر التروبادور"[1] أخذ عن الشعر العربي نظام التقفية وأخذ عن شعر الغزل نظرته المتسامية إلى المرأة.

2- المسلك التعليمي: الاشتغال بالثقافة الإسلامية دفع الأوربيين إلى تأسيس مدارس خاصة تعنى بالثقافة الإسلامية وفق المنظور الغربي، من هذه المدارس مدرسة طليطلة للدراسات الشرقية وكان الغرض من الدراسة في هذه المدرسة تخريج عدد من المسيحيين ثقفوا ثقافة عربية إسلامية ليقوموا بالتبشير بين المسلمين، ومن أشهر أساتذة هذه المدرسة المستشرقان الإسبانيان (ريمون لل) و(ريموند مارتن) كما أسست بعد ذلك وتحديدًا في القرن الثامن عشر في فرنسا مدرسة للدراسات الشرقية.

[1] عبد الحكيم حسان، صلات الأدب العربي بالآداب الأجنبية، ضمن كتاب أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، عنابة 1983، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص95.

مثل هذه المدارس أكدت حركة الاستشراق قصد دراسة الإسلام وعلومه وآدابه للاستفادة منها من جهة، وتشويها من جهة أخرى. ونذكر من أعلام الاستشراق في أوربا: فرايتا غ وفلوجل، وبروكلمان في ألمانيا ومارجليوت وكارليل وبراون في إنجلترا...الخ.

3- المسلك الترجمي: إدراك علماء الغرب لنفائس الحضارة الإسلامية في مختلف الآداب والعلوم والفلسفات، دفعهم إلى فتح مؤسسات خاصة تعنى بالترجمة من العربية إلى اللّغة اللاتينية ثم إلى اللّغات الأوربية الحديثة، ففي سنة 1130م افتتح في طليطلة "مكتب للترجمة نقلت بواسطته أمهات الكتب العربية إلى اللّغة اللاتينية"[1] واستمر نشاط الترجمة في أوربا حتى القرن الثامن عشر ميلادي.

هذه المسالك وأخرى شأن الرحلات والبعثات العلمية كانت وراء معرفة وتأثر الغرب بالآداب العربية الإسلامية.

وأحببنا في هذه المحاضرة الأخيرة أن نركز على أدبيين غربيين كان للأدب العربي والثقافة الإسلامية أثر بيّن في أعمالهما الأدبية والفكرية، وهما:

ثانيا. أثر الأدب العربي والثقافة الإسلامية في أعمال الغربيين:

1- الأديب الروسي "بوشكين":

فهو ممثل النهضة الأدبية في روسيا في القرن التاسع عشر فقد كان "بوشكين، وما يزال أعظم معلم في تاريخ الأدب الروسي، إنه المؤسس الحقيقي لهذا الأدب، ومانحه شخصيته القومية"[2].. فكان قدوة الأجيال ومعلم الأدباء من بعده لما يتمتع به أدبه من جماليات فنية وموضوعات شعبية... وكان من مصادر الإلهام في أدب بوشكين التراث العربي الإسلامي، لما وجد في هذه الآداب والنصوص الدينية من ثورة على الظلم والقهر والاستبداد الذي ساد في عصره.

---

[1] المرجع السابق، ص94.

[2] جميل نصيف، صور عربية في الأدب الكلاسيكي الروسي، ضمن كتاب أعمال الملتقى الدول حول الأدب المقارن، عنابة 1983، ص124.

ففي سنة 1874 بعث برسالة من منفاه –في ميخائيلو فسكويه– إلى أخيه "ليف سرغييفيتش" في بطرسبورغ، قال له فيها: "أنا الآن أعمل من أجل مجد القرآن"[1] وانعكس هذا الأثر في قصائده التسع التي تحمل عنوانا واحدًا (محاكاة القرآن)، كما أن روائع "ألف ليلة وليلة" أثرت في أعماله القصصية، خاصة في قصته الشعرية (روسلان ولودميلا)، فهو متأثر في صياغة العوالم الساحرة والخلابة بحكايات ألف ليلة وليلة[2].

كما سجل المحققون والدارسون مدى تأثر "بوشكين" بلغة ومضامين القرآن الكريم في قصائده "محاكاة القرآن" خاصة في القصيدة الأولى يستعمل صيغة (القسم القرآنية) البارزة في قصار سور القرآن الكريم: والعصر، والفجر، والليل...الخ.

وهذا مقطع من القصيدة الأولى، ترجمه جميل نصيف، جاء فيه:

أقسم بالشفع والوتر

اقسم بالسيف وبمعركة الحق

اقسم بنجمة الصباح

اقسم بصلاة العصر

كلا، لم أهجرك

فمن الذي أهديت إلى ظل الطمأنينة

وأخفيته عن تعقب الأرصاد[3].

وفي القصيدة الثانية يقول:

يا نساء النبي الطاهر

لقد ميزتن عن سائر النساء

إنه ليعظكم عليكم حتى شبح الرذيلة

---

[1] المرجع السابق، ص127.

[2] ينظر، المرجع نفسه، ص129.

[3] المرجع نفسه ، ص135.

فعشن بوقار، حيث يخيم عليكن.
نعيم الهدوء يليق بكن
صحاب الفتيات المحصنات[1].

هي آيات قرآنية استلهم منها أبياته الشعرية كقوله تعالى: **(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ)**[2] وقوله **(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)**[3].

كما خلّف "بوشكين" حكايات شعرية رائعة الجمال، منها حكاية (الصياد والسمكة) التي لا تختلف في جوهرها عن حكايات ألف ليلة وليلة من حيث تأكيدها على فضائل معينة كالقناعة والطيبة والعطف على الفقراء والرضا بالقدر... ووقوفها ضد الطمع والجشع والقسوة[4].

2- جيته والآداب الإسلامية:

عاش الأديب الألماني "يوهان فولفجانج فون جيته" بين القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلادي، ويعرف لدى الألمان وغيرهم بملحمته الشعرية (فاوست) وله ديوان آخر يعرف بـ(الديوان الغربي الشرقي)، فمصادر ثقافة "جيته" الشرقية واضحة في أعماله وآثاره الخالدة، خاصة في ديوانه الأخير. إذ يؤكد أهل الاختصاص أن "جوته" درس الكتاب المقدس بعد تعلمه "اللغة العبرية" ثم درس القرآن الكريم وأظهر إعجابا كبيرا به، ثم درس المعلقات في ترجمتها الإنجليزية التي أصدرها وليم جونز، ثم اطلع على الآداب الشرقية كالهندية والفارسية[5].

"جيته" له قصيدة بعنوان (هجرة) نظمها عام 1814 يتحدث فيها عن هجرة روحية إلى الشرق الطاهر... وفي نيته إذا وصل إلى الشرق أن يعيش مع الرعاة... ثم يحي شاعره المحبوب حافظ الشيرازي الذي تعينه أغانيه وتؤنسه في تلك الصحاري[6].

---

[1] المرجع السابق، ص137.
[2] سورة الأحزاب، الآية 32.
[3] سورة الأحزاب، الآية 133.
[4] جميل نصيف، صور عربية في الأدب الكلاسيكي الروسي، ص159.
[5] ينظر، طه ندا، الأدب المقارن، ص230.
[6] ينظر، المرجع السابق ، ص231.

وقد فصل "طه ندا" في كتابه "الأدب المقارن"[1] المصادر التي زودت جيته بالثقافة الشرقية الإسلامية وأثرت في تكوينه الأدبي، نجمل هذه الآثار في مصدرين هما:

1- الإسلام: حب جيته وتمجيده للإسلام جاء بعد دراسة وبحث، كما أفاد كثيرًا من القرآن الكريم، ففي قصيدته (قوم ممتازون) يرثي شهداء موقعة بدر من المسلمين على لسان محمد صلى الله عليه وسلم.

الأدب الفارسي: تأثر بالأدب الفارسي الإسلامي وأعظم من يستهويه من أدباء الفرس الشاعر الفارسي المشهور "حافظ الشيرازي" (791هـ) بعد أن اطلع جيته على ترجمة (فون همر) لديوان حافظ الشيرازي والذي بلغ ما يقرب أربعة آلاف بيت، كما تأثر بـ"نظامي كنجوي" (ت608هـ) ومنظومته المشهورة "ليلى ومجنون" والتي يربو عدد أبياتها عن (4000 بيت).

ومن الطرائف في سيرة "جيته" حبه الشديد للعمامة العربية حتى قال: "إن الله أنعم على العربي بنعم أربع عمامته وخيمته وسيفه وشعره"[2].

أعتقد أن في المثالين الأول (بوشكين) والثاني (جيته) دلالة قوية على صفاء الشرق وقوة تأثيره في الآداب الغربية، مما يؤكد أن الآداب تتلاقح وتأخذ من بعضها، فكل أدب كما قال جيته "ينتهي إلى الضيق بذات نفسه إذا لم تأتي إليه نفائس الآداب الأخرى".

وفي الختام نقول إنه كما تأثر أسلافنا بالآداب الأجنبية (الفارسية، الهندية، اليونانية) فإن أدبائنا في العصر الحديث تأثروا بالآداب الغربية، نتيجة اجتماع عوامل متعددة أهمها: الترجمة والبعثات الطلابية إلى أوربا وانتشار وسائل الإعلام الحديثة كالصحف والمجلات. فالسرديات العربية الحديثة ما كان لها لتكون لو لم تستفيد وتتأثر بالسرود الغربية (الرواية، القصة القصيرة، المسرحية...) ومن أنصع الأمثلة على ذلك تأثر أحمد شوقي بلافونتين في السرد على لسان الحيوان قصد نشر الوعي الاجتماعي وسط المواطنين، ونقد مظاهر الفساد فيه... وكذلك في المسرح كما هو الحال عند مارون النقاش (1855م) وتأثره بالأدب الغربي عامة والإيطالي خاصة، ثم ما أعقب هذا التأثر بتأثر آخر برز بقوة في فن الرواية، فالرواية

[1] للتوسع العودة إلى كتاب الأدب المقارن، ص231 إلى 237.

[2] المرجع نفسه، ص236.

العربية الحديثة ما كان لها لتوجد لولا ترجمة أدبائنا للروايات الغربية أولاً ثم محاكاتها ثانيا والإبداع على نسقها ثالثا.

وهذه مجالات نعود إليها في مؤلفنا الثاني –بحول الله وقوته– حول السرديات العربية الحديثة.

ثالثا. للتطبيق:

مما كتب جوته في ديوانه (الغرب والشرق) قصيدة بعنوان (بعثة محمد)، كتبها جوته قبل موته ومن ثم لم يستطع إصدارها إلاّ أنه تم العثور عليها بعد 88 سنة من وفاته على يد "رايندر ماريا رايكليه" والتي أخرجتها إلى النور عام 1907.

مما جاء فيها، قوله:[*]

حينما كان يتأمل في الملكوت
جاءه الملاك على عجل
جاء مباشرة بصوت قال ومعه النور
اضطرب الذي كان يعمل تاجرًا
فهو لم يقرأ من قبل– وقراءة
كلمة تعني الكثير بالنسبة إليه
وأمره بقراءة ما هو مكتوب
ولم يبال وأمره ثانية بـ اقرأ
فقرأ لدرجة أن الملاك انحنى
واستطاع القراءة
واستمع الأمر وبدأ طريقه...

[*] نشر في شباكات إعلامية مرسل الكبيسي، نشر في الوسط التونسية يوم 2009/10/09.